حرب الطائرات المسيّرة في العراق:

اعتبارات تتعلق بأثرها على المدنيين والنزاع في السياق المحلي

ورقة سياسات

للاتصال

وفاء علي
مديرة قسم السياسة والمناصرة، العراق
wafaali@nonviolentpeaceforce.org



Nonviolent Peaceforce

في عالم يشهد تصاعداً في مستويات العنف وهشاشة في مسارات السلام، بات استخدام التقنيات الحديثة، بما في ذلك الانتشار الواسع للطائرات المسيّرة، يغيّر طبيعة إدارة الحروب والمخاطر التي يواجهها المدنيون. فمن أوكرانيا إلى الشرق الأوسط، أصبحت الطائرات المسيّرة عنصراً محورياً في ديناميات الحرب، وترتبط بأشكال أوسع وأقل وضوحاً من الأذى الذي يلحق بالمدنيين.

وعلى الرغم من أن التحليلات القائمة تناولت انتشار حرب الطائرات المسيّرة وتكاليفها وتداعياتها القانونية، إلا أن هناك حاجة إلى تركيز أكبر على الكيفية التي تتجلى بها آثارها في سياقات محددة. تركز هذه الورقة على العراق، مسلطةً الضوء على الكيفية التي تتفاعل بها السلطة المجزأة، والترتيبات والتحالفات الأمنية المتداخلة، مع استخدام الطائرات المسيّرة، بما يؤدي إلى خلق مخاطر متميزة على المدنيين، ويؤثر في إمكانات التخفيف من النزاع وإدارته. فالعراق ليس مجرد ساحة أخرى لحرب الطائرات المسيّرة، بل يمثل فضاءً متميزاً بنيوياً لصراع بالوكالة، حيث تعيد التجزئة، والفاعلون الهجينون، والتحالفات المتنافسة، والهشاشة البنيوية في البنى التحتية، تشكيل الطريقة التي يتأثر بها المدنيون.

الهوية والديناميات الاجتماعية

يواجه المدنيون في العراق مخاطر متزايدة جراء حرب الطائرات المسيّرة، وذلك بسبب تعدد الجهات المسلحة وتداخل حضورها داخل التجمعات المدنية. فهويات الفاعلين المسلحين، سواء من الدولة أو من خارجها، تتسم بالتعقيد، ولا يمكن اختزالها في ثنائية الاستقطاب بين إسرائيل/الولايات المتحدة وإيران، إذ تنطوي على شبكة معقدة من التحالفات. إن تشابك هويات المدنيين والفاعلين المسلحين وتداخل وجودهم الجغرافي يضع المدنيين في دائرة الخطر من هجمات الطائرات المسيّرة، إذ غالباً ما تستهدف هذه المسيرات الجهات المتواجدة في المناطق المأهولة بالسكان.

ولا يؤدي ذلك بالضرورة إلى خلق انقسامات جديدة، لكنه قد يعزز سرديات قائمة تتسم بالتجزئة. فقد تتداول المجتمعات المحلية نقاشات حول من أو ما الذي يجري استهدافه، وهو ما قد يسهم أحياناً في حالة من عدم اليقين أو انعدام الثقة. وفي الوقت ذاته، يؤكد العديد من المدنيين أن التعرض للخطر هو تجربة مشتركة، بغض النظر عن الهوية. وكما أشارت مريم، وهي عاملة في إحدى المنظمات غير الحكومية:

> " في السياق الاجتماعي المتنوع في العراق، من غير الممكن ألا يتشارك المواطنون من خلفيات مختلفة مخاوف مشتركة بشأن التحديات اليومية التي يواجهونها، مثل نقص الكهرباء، ومشكلات إمدادات المياه، وصعوبات النقل. لقد أصبح النقاش حول هذه القضايا جزءاً طبيعياً من الحياة اليومية. غير أن الهجمات الأخيرة بالطائرات المسيّرة نقلت الحديث العام إلى مستوى أكثر خطورة، إذ لفتت الانتباه إلى هشاشة الوضع الأمني والاقتصادي والسياسي في العراق. وأصبح هذا القلق أكثر إيلاماً عندما طال الاستهداف المدنيين، ولا سيما الأطفال، مثل الطفل البالغ من العمر ثماني سنوات الذي قُتل في هجوم بطائرة مسيّرة في بغداد. وقد انعكس ضعف الوضع وتعقيده بوضوح في الخطاب المتداول على وسائل التواصل الاجتماعي، وفي الأحاديث اليومية والرأي العام، حيث أعادت هذه الأحداث إلى الأذهان ذكريات فترات كان فيها المدنيون يُتركون مكشوفين في الشوارع، عرضة للخطر ودون حماية فعالة من الدولة".

ويبرز ذلك دينامية مزدوجة: فبينما يمكن للنزاع أن يزيد من حدة التصورات القائمة على الاختلاف، فإن تجربة انعدام الأمن يمكن أن تكشف أيضاً عن أرضية مشتركة بين الناس.

تكلفة الطائرات المسيّرة وعمليات اعتراضها

تؤثر تكلفة حرب الطائرات المسيّرة على المدنيين في العراق، إذ تُحوَّل الموارد من الخدمات الأساسية إلى أنظمة الدفاع الجوي وشراء الأسلحة. وتشير التقارير إلى أن تكلفة الطائرة المسيّرة الواحدة في الحرب الأخيرة، تبدأ من نحو 20,000 دولار أمريكي، وأن اعتراض هذه الأسلحة عبر أنظمة الدفاع الجوي المختلفة قد يتجاوز مليون دولار أمريكي في كل حالة.

ويمكن لهذا الخلل او عدم التوازن في التكاليف أن يشكل ضغطاً على موارد الدولة، ولا سيما في سياقات مثل العراق، حيث تعاني الموازنات العامة أصلاً من أعباء إعادة الإعمار وتوفير الخدمات. وفي الوقت نفسه، يثير هذا الأمر حساسية خاصة لدى المجتمعات التي لا ترى سوى القليل، إن وجد، من الموارد المستثمرة عالمياً في تلبية احتياجاتها للتعافي من دورات العنف السابقة، بما في ذلك التعويضات المرتبطة بالعدالة الانتقالية في سياق ما بعد تنظيم داعش، فضلاً عن جودة الخدمات الأساسية، ومنها التناقص المتزايد في إمدادات المياه في ظل التأثير المتسارع لتغير المناخ على الحياة اليومية.

كما أن اعتراض الطائرات المسيّرة لا يحدث بمعزل عن النسيج الاجتماعي للسياق المحلي. ففي البيئات التي تتداخل فيها المساحات العسكرية والمدنية بشكل وثيق، تنطوي الإجراءات الدفاعية بحد ذاتها على مخاطر. فقد تسقط الطائرات المسيّرة أو الصواريخ التي يتم اعتراضها داخل مناطق مأهولة أو بالقرب منها، كما يمكن أن تؤثر الانفجارات، سواء كانت ناجمة عن أجهزة مهاجمة أو معترضة، في البنى التحتية القريبة.

وتنعكس هذه الديناميكية بشكل متزايد في الكيفية التي يختبر بها المدنيون مفهوم السلامة، كما يظهر من خلال التحليلات الجارية وشهادات المجتمع المحلي، ومن بينها شهادة ريم التي تقول:

> " كان أكثر ما يثير القلق هو كيف أصبح كل شيء يبدو عشوائياً. لم تعد الطائرات المسيّرة شيئاً بعيداً، بل أصبحت تسقط على منازل مدنية دون سابق إنذار. في إحدى الحالات، كانت عائلة قد غادرت منزلها في تلك الليلة بالمصادفة تقريباً، بعد أن سمعت أن منزلاً قريباً قد تضرر قبل أيام قليلة. وقد تعرض منزلهم لاحقاً لأضرار كبيرة. وقالت امرأة مسنة إنها كان لديها شعور بأن شيئاً ما قد يحدث، ولهذا غادروا. يجعلك ذلك تدرك إلى أي مدى يبدأ الشعور بالأمان وكأنه مسألة حظ. يبدأ الناس بالتساؤل عما إذا كان البقاء آمناً، أو المغادرة، أو حتى التنقل داخل أحيائهم".

ويخلق هذا وضعاً لا يتعرض فيه المدنيون فقط للضربات المقصودة، بل أيضاً لدورة أوسع من الهجوم والدفاع. وبالتالي، لا يبقى الخطر محصوراً في أهداف محددة، بل يمتد إلى المناطق المحيطة بها.

> وفي حين أن الأهداف المعتادة للطائرات المسيّرة قد تكون قابلة للتوقع إلى حد كبير، فإن عدم معرفة مكان سقوط الحطام أو مدى امتداد أثر الانفجار يجعل من الصعب الشعور بالأمان الحقيقي. ويزداد هذا الشعور بالريبة حدةً عندما تكون بعيداً عن عائلتك، ففكرة أن شيئاً ما قد يحدث، وأنك قد لا تتمكن من الوصول إليهم، تبقى عالقة في الذهن.
>
> -موظف في منظمة اللاعنف لتعزيز السلام من أربيل

الآثار المتراكمة للهشاشة القائمة ودورات العنف السابقة

لا يقتصر أثر الطائرات المسيّرة في العراق على الأضرار المادية المباشرة، بل يتفاعل مع الهشاشة النفسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة، وكذلك مع الاستقطاب الذي تشكل عبر عقود من النزاع، والتحديات الاقتصادية، والضغط على البنى التحتية.

وعندما تُستخدم الطائرات المسيّرة لأغراض المراقبة، فإنها تسهم في خلق شعور مستمر بأن السكان تحت الرصد. وحتى عندما لا تقع ضربة، فإن صوت الطائرات المسيّرة أو الوعي بوجودها يمكن أن يؤثر في الروتين اليومي، والنوم، وتصورات السلامة. ففي أماكن مثل غزة، على سبيل المثال، جرى توثيق الطنين المستمر لطائرات المراقبة المسيّرة التي تستخدمها إسرائيل منذ سنوات بوصفه أحد مظاهر انعدام الأمن. ويُبلِّغ المدنيون في العراق بشكل متزايد عن نمط مشابه.

تعيش المجتمعات أصلاً في ظل هشاشة قائمة وإرث طويل من الحرب، وهو ما يزيد من تفاقم مواطن الضعف لدى الناجين في مسارهم نحو التعافي الجماعي. وعندما يعبر المدنيون في العراق عن أثر ذلك عليهم وعلى بلدهم بقولهم: "ليست هذه المرة الأولى، سنتدبر الأمر"، فإن ذلك يعكس مستوى من تطبيع العنف والخطر المستمر، بما يحرم الناس من الإحساس بالأمان.

وفي بعض المجتمعات، أدى التعرض المتكرر لانعدام الأمن إلى نوع من التخطيط اليومي للطوارئ. فقد تحتفظ العائلات بوثائقها المهمة في أماكن يسهل الوصول إليها، وتحافظ على شبكات اتصال نشطة، أو تحدد أماكن محتملة للانتقال إليها عند الحاجة. ولا يؤدي ذلك دائماً إلى نزوح فوري، لكنه يعكس كيف يشكل انعدام الأمن عملية اتخاذ القرار مع مرور الوقت. فاختيارات السكن، وفرص العمل، وأنماط التنقل، قد تتأثر جميعها بتصورات الخطر.

وتصف ريم، التي شهدت هذه الهجمات بالطائرات المسيّرة بشكل مباشر، التجربة قائلة:

> " أكثر ما عانى منه الناس هو كيف أصبحت الأمور مفاجئة وغير قابلة للتوقع. كان صوت الطائرات المسيّرة يتبعه غالباً دوي انفجارات قوية بدأت تقترب من المناطق المدنية، مما جعل الناس يشعرون بأنهم قد يكونون معرضين للخطر مباشرة، بما في ذلك خطر سقوط الحطام. وقد أثر ذلك بشكل كبير على النوم، إذ كان كثيرون يخشون النوم خوفاً من وقوع شيء أثناء الليل. وفي الوقت نفسه، أصبحت الحركة أكثر تقييداً، حيث اختار الناس البقاء داخل منازلهم أو تجنب أماكن معينة، لأن الأهداف المحتملة قد تكون موجودة في مناطق مختلفة من المدينة، بما في ذلك خلال النهار وساعات العمل. وبينما حاول البعض في البداية التعامل مع الوضع وكأنه أمر طبيعي، فإنه مع تزايد الحوادث واهتزاز المنازل بفعل الانفجارات القريبة، أصبح الأمر مرهقاً وأعاد تنشيط صدمات الماضي. ومع مرور الوقت، أصبح الناس شديدي الحساسية تجاه الأصوات، حتى إن الضوضاء البسيطة باتت تخلق شعوراً بالتيقظ والترقب".



Erbil Governorate, Iraq, 2022. Photo: Osama Shukir Muhammed Amin FRCP(Glasg),

الخاتمة

إن تبني منظور يركز على المدنيين عند النظر في أثر استخدام الطائرات المسيّرة في العراق لا يحل تعقيدات تحديد الجهة المسؤولة أو النية وراء الاستهداف، ولا يزيل الآثار الثقيلة التي يخلّفها هذا النوع من الحرب على المدنيين. ومع ذلك، من المهم فهم الكيفية التي تتشكل بها التحولات التكنولوجية في الحروب، مثل الاستخدام المتزايد للطائرات المسيّرة، وفقاً للسياق الذي تحدث فيه، وكيف أن عواقبها في بيئات مثل العراق تمتد إلى نسيج الحياة اليومية. إن إجراءات الوقاية والاستجابة التي تلبي احتياجات المدنيين يجب أن تراعي هذه الخصوصيات، وأن تستند إلى تجارب المجتمعات الموجودة على خطوط المواجهة، سواء في العراق أو خارجه.

منظمة اللاعنف لتعزيز السلام متاحة لمناقشة الاستجابات البرامجية لاستخدام الطائرات المسيّرة، واعتبارات واجب الرعاية في مواجهة هذه الأضرار، عند الطلب.